العلاقة بين الذات والآخر في قصص رضوى عاشور

د. يمنى رجب إبراهيم

المقدمة:

عادة ما يرتبط البحث في إبداع (رضوى عاشور) الأدبي بالبحث في التاريخ حيث يظهر عشقها لتفاصيل أحداثه التي خَلَّفت آثاراً ولازالت. إن (رضوى) دائماً تربط الحاضر بالماضي وتعمل عقلها فيما يحدث ولماذا حدث، وتستشرف المستقبل محاولة بذلك الفهم والتحليل. لكن البحث في هذه العلاقة الثنائية يكشف عن خوفٍ كامن في داخلها من سطوة (الزمن)، ذلك المجهول الذي لا يتوقف أبداً، ملاحقاً إياها ومطالباً بتحقيق الذات أو الانضواء تحت ذواتٍ أخرى.

ومن هنا كانت الفكرة، فلم يكن تركيزي في البحث على دراسة الزمن والتاريخ وما يرتبط داخل العمل الأدبي وخارجه من وقائع وأحداث. بل أردت أن يختلف هذا البحث عن المعهود. لقد أردت التنقيب في (ذات) رضوى وكيانها الذي تكوّن عبر سنين عمرها الحافلة بالأحداث (١٩٤٦-٢٠١٤م). لأن البحث في ذاتها بحث في ذوات متعددة. لقد عاشت (رضوى) بكل ما تحمله كلمة (الحياة) من معنى حياة حافلة تأثرت فيها بذواتٍ أخرى شرقية وغربية في كل خطوةٍ وفي كل اتجاه، فأضحت ذاتها حاملة لملامح متغايرة ومتشابكة. ذات اغتنت فأغنت، ونضجت فأزهرت وأشرقت: روايةً، ونقداً وإبداعاً علمياً.

إذن فهدف البحث هو: دراسة ثنائية: الذات والآخر في علاقتها الجدلية مع بعضها البعض من خلال إبداع رضوى عاشور الأدبي: السيرة، والرواية، والحكاية. وقد اتخذ البحث لذلك الهدف مادة موضوعة للدراسة تتمثل في: أولاً: (الرحلة)، و(أثقل من رضوى) وهما سيرتان ذاتيتان قامت بكتابتهما رضوى عاشور: الأولى عام ١٩٨٣م والثانية ٢٠١٣م قبل وفاتها بعام واحد. وبين السيرتين بون زمني شاسع يحمل معه الكثير من الأحداث، والأماكن والأزمان بحيث أصبحت (رضوى) في السيرة الثانية على حد تعبيرها أثقل من (رضوى) !

ثانياً: الرواية: (خديجة وسوسن) والحكاية: (سراج) وذلك على اعتبار أن كل عمل منهما (نموذج) لنوعه الأدبي سواءً الرواية أو الحكاية الأدبية.

ويرتبط بدراسة (الذات) دراسة (الآخر) فهو مرآة الذات وعن طريقه تكتشف نفسها، ومدى وضوح صورتها الذاتية أو عدمه. والآخر أمام ذات رضوى عاشور متعدد، ليس فقط على سبيل الاتفاق والاختلاف الفكري لبني البشر بل على سبيل اتساع الفكرة الذهنية عن ذلك الآخر فهو الأجنبي، وهو المختلف عنها في التفكير أو المغاير لها في الرأي، وهو الزوج، وهو الزمن، وهو البحر، وهو الحلم.

وبذلك تكون الدراسة التحليلية في البحث في اتجاهين متوازيين:

١- الذات والآخر في السيرة الذاتية: (الرحلة) و(أثقل من رضوى).

٢- الذات والآخر في الرواية والحكاية: (خديجة وسوسن) و (سراج).

وفي الأولى يكون الذات والآخر الحقيقي الواقعي وفي الثانية يكون الذات والآخر المتخيل الذي يتلاقى ويتشابك مع الأول في ملامح كثيرة هذا مع اعتبار أن الدراسة في ذلك المجال من ميادين الدراسات المقارنة حيث البحث في الهوية الإنسانية وعلاقتها بالآخر المضاد أو المجانس لها تأثيراً وتأثراً تشابهاً واختلافاً.

وأدعو الله العليم أن أكون قد وفقت في إتمام دراسة هذا البحث على الوجه اللائق علمياً.

أولاً: السيرة الذاتية:

إن الكتابة الذاتية في السيرة تضيف إلى الإبداع الأدبي صفة الحيوية فتجد النص نابضاً بأحداث واقعية حدثت بالفعل، مصوّراً لذات عاشت بالفعل وهي صاحبة السيرة الذاتية، فهو ليس خيالاً محضاً لكنه إبداع ذاتي تحقق في وقت من الأوقات فأضحى الزمان والمكان فيه موجودان ملموسان. كما أن النص يكون حينئذ استبطان نفسي لذات تكونت خلال هذه النصوص المجتمعة، فهي منها وعن طريقها اجتمعت، لذا فإن "الترجمة هي عملية تحليلية لكل مركز من عناصر كثيرة مختلفة هو (الشخصية) ومن خلال هذا التحليل تبرز القيم الإنسانية التي تنطوي عليها الشخصية والتي يهم الآخرين الاطلاع عليها".(١) وعن طريق عرض (الذات) على صفحات النص الأدبي يتكون الموقف الذاتي من العالم أو ما يسمى بـ (رؤية العالم) والذي يحمل بصمة خاصة لكل ذات. إنه بمعنى آخر: "ربط النص بالحياة والتجربة الشخصية وجعل صوت الذات الكاتبة حاضراً بين الأصوات الروائية لتمييز محتوى النص عن الخطابات الأخرى التي تعطي الأسبقية للقيم والأفكار الغيرية والحرص على تذويت الكتابة يقترن بتوفير (رؤية للعالم) تحمل بصمات الذات الكاتبة".(٢)

ولكن كيف تتكون رؤية العالم. وما الذي يربط عرض الذات أدبياً في السيرة الذاتية بتكوين رؤية العالم. ذلك أن العمل الأدبي الذاتي يرتكز على ما يسمى (المعرفة) تلك المعرفة تكوّن ما يسمى بـ (رؤية العالم) أو المنظور الأيديولوجي وهو كما يعرفه أوسبنسكي (منظومة القيم العامة لرؤية العالم ذهنياً). (٣)

يرى البعض أن أصدق حياة يمكن أن يكتبها الإنسان هي ترجمته لحياته الخاصة فهو أعرف الناس بها وهي Autobiography أو ترجمة الحياة الشخصية.(٤)

ورغم ذلك يبدو التناقض. لأنه "مهما بلغت صراحة كاتب السيرة الذاتية وشجاعته فإنه غالباً ما يحرص على أن يقدم صورة متناسقة لحياته من أولها إلى آخرها

وهو ما لا يبدو ظاهراً عند رضوى عاشور، فهي تكتب بصدق وحرارة من يؤمن بمسؤوليته عما يكتب. إنها تسجل أحداث حياتها أمام القارئ بعفوية وصدق وانطلاقة من يحاور القارئ ويحكي له.

تقول: "أنا امرأة عربية ومواطن من العالم الثالث وتراثي في الحالتين تراث الموءودة. أعي هذه الحقيقة وأخافها إلى حد الكتابة عن نفسي وعن آخرين مثلي"(٥). فهي امرأة وعربية قبل كل شيء. هذا الإطار العام للصورة الشخصية يضيف الكثير لمن يريد معرفة ذات رضوى عاشور وإدراك كهنها. الذات التي تعادل الهوية هي: (أنا) عربية في مواجهة الآخر. هذه العبارة الصادقة التي تحمل مفردات التكوين الذاتي: امرأة، عربية، مواطن من العالم الثالث، تراثي تراث الموءودة. وبذلك تحمل رضوى عاشور في وعيها همّ الحفاظ على الذات العربية والتأصيل لها، وتجذيرها والسير بها بعيداً عن دعاوى العولمة والحداثية الغربية ولذا فإنه "عادة ما يكون الأنا هو الذي يدافع عن الهوية الثقافية والخصوصية والمحلية في مواجهة الآخر الذي يتحد مع العولمة والعالمية والكونية.

فالعلاقة بين الطرفين هي أزمة وجودية تاريخية تعبر عن صراع. إنها تجربة معاشة عند كل مثقف عربي يشعر بهذا التمزق بين الأنا والآخر ويكون الموقف إما بالاتجاه إلى الآخر رغبة في أن يكون حديثاً عصرياً في مواجهة ثقافة قديمة تراثية وعقل ظلامي مغلق أو بالاتجاه إلى الذات رغبة في أن يكون أصيلاً مدافعاً عن هويته الثقافية في مواجهة التغريب والتبعية الثقافية والهيمنة الحضارية".(٦) وهكذا تبدأ علاقتها مع الآخر بشتى أشكاله منذ الطفولة، تقول: " ألحقني أهلي بمدرسة فرنسية حيث معلمات يدعون: مدام ميشيل.. وتلميذات يحملن أسماء: فرانسواز... وكنا نحن الفاطمات نعامل على أننا أقل. لم يقل ذلك أبداً في كلمات ولكنه كان يسري في المكان كالهواء الذي نستنشقه".(٧)

أما المرأة في (ذات) رضوى عاشور فتحتاج إلى تدقيق نظر وبحث وذلك من زوايا عدة تبعاً لفلسفة رضوى في إدراك ذاتها وعلاقتها بالآخر. إنها مع الإقرار بأننا "لا يمكن أن تكسَب وعياً بالذات إلا في مقابل (ما ليس أنا) أي (ماهو آخر)"(٨)

إذن المرأة = الأنا = الذات في مقابل الرجل = هو = الآخر ولكن هل العلاقة بين الذات والآخر عند رضوى عاشور تبدو بهذه البساطة والحيادية ؟

إنه لأمر معقد وشائك لبعض الذوات النسائية أن تدرك حدود كيانها وتكوينها خاصة إذا كانت قد اتسمت بسمات مميزة. فهي تحاول إدراك نسويتها وفي الوقت نفسه تحاول تحقيق ذاتها التي لا تهتم أو تكترث بالفارق بين الجنسين: (المرأة والرجل).

تقول رضوى: "في مراهقتي ركضت خوفاً من جسدي النامي ومن الحرملك المنتظر ثم بقيت أركض لكي لا أفقد نديتي للرجال من أبناء جيلي، أركض لكي أتعلم، أركض لكي أستقل، وأركض لكي لا يعيدني أهلي إلى حظيرة حبهم ووصايتهم وأركض لكي لا يزج المجتمع بي في خانة الدونية المعدة سلفاً للنساء".(٩)

ومن النص يتضح مدى الارتباك في إدراك الذات والمحاولات المتعددة في تأكيد صفة الإنسانية الشاملة فيها. ومن خلال (الرحلة) تتعدد النصوص التي توضح مشكلة الاختلاف بين الرجل والمرأة في فكرة (رضوى عاشور). تقول: "لماذا يعاودني الإحساس نفسه بأنني.. منفية من تاريخ الأزهر كلما لمحت أفاريزه ومآذنه ولو في الخيال؟ عند العمود يجلسون، كل مجموعة تحيط بأستاذها، تنصت إليه، وتملأ دلاءها وتروح إلى جفاف الأرض ترويه وأنا الحبيسة في تاء التأنيث لم تخط قدماي العاريتان أبسطة المسجد الألفي إلا كزائرة غريبة ولا استند ظهري إلى عمود رخامي بباحته ولا قلت ظهيرة صيف في ظله أحلم بالممكن والمستحيل.. قلت هذا الألفي تاريخ مغلق دوني".(١٠)

إن تحقيق الذات مرتبط في ذهنها بعدم التركيز على الجانب النسوي في ذاتها، بل على صفة الإنسان القادر على الفعل. ومثلها ذوات أخرى، لقد كتبت (هيلين سيكسوس) على سبيل المثال عن بحثها عن معنى الذات بوصفها مخرج أو منفذ أو سبيل للفكاك من هوية إجتماعية محاصرة لها ولدت في ظلها كفتاة جزائرية فرنسية: "كنت أقول لنفسي: لابد أن يكون هناك مكان آخر.. الجميع يعرفون بوجود مكان.. هذا المكان هو الكتابة".(١١)

ومع (الرحلة) التي بدأت في طلب العلم، بدأت رحلة أخرى نحو تشكيل (الذات) ونضجها في مواجهة (الآخر). تقول رضوى "كنت أرغب في تقديم شهادة عن رحلتي الأمريكية، تختلف وتتواصل مع مجموعة من النصوص التي كتبها أدباء مصريون ذهبوا إلى الغرب طلاباً للعلم.. كانت تجربتي امتداداً لتجربتهم وكانت أيضاً تختلف لأنني ذهبت بتشكك وخوف ومرارة من الآخر الإمبريالي. كنت أنتمي لجيل مختلف ولي موقف أيديولوجي مغاير ثم أنني امرأة؛ كانت العين التي ترى والوعي الذي يصنف مفردات التجربة يفرضان ضرورات تخصهما".(١٢)

وفي ذلك النص تحديد لهويتها وتأكيد لذاتها.

ثانياً: الذات:

يتضح من خلال نص الرحلة – أكثر من أي نص آخر – وهج العلاقة بين الذات والآخر بما يتضمنه ذلك الوهج من خوف ورغبة وتشكك وحلم. ذلك أن نص الرحلة أول وثيقة ذاتية لرضوى عاشور في سجل علاقتها مع الآخر. وتتمثل مفردات تلك العلاقة من خلال النص منذ البداية حيث الذات / رضوى تتأهب للمشاركة في تجربة حياتية جديدة حاملة معها مفردات تكوينها الأصلي: صورة للعائلة: "يتصدرها أبي حاضراً وعنيداً موزعاً بين رغبته في أن يُطلِقني في الأرض امتداداً لفورة حياة من صلبه، ومخاوف مسلم ريفي الجذور يريد للبنت الستر". يتماهى ذلك النص الواضح المغزي مع محاولة تجديد معالم الذات / رضوى فهي المرأة الحاضرة منذ البداية مُوَزَّعة بين تحقيق الذات، وقواعد المجتمع الشرقي.

امرأة جذورها عربية مثلها مثل رفاعة الطهطاوي. تقول: "كرفاعة كنت في طريقي إلى بلاد (بعيدة عنّا غاية الابتعاد) لتحصيل المعارف". ومن النص نلاحظ تأكيدها بين قوسين على البعد بين الشرق والغرب، إنه ليس بعداً مكانياً فقط بل هو بعد في العادات، والتقاليد، والثقافة.

لكنها تعقد عملية مقارنة، وتحدد موقفها تجاه الآخر المشترك، وتميز ذاتها في مقابل الذوات المماثلة: "لكني لم أكن مثله – تقصد رفاعة الطهطاوي – ذاهبة بحياد من لا يعرف شيئاً مما هو مقبل عليه، ولا كنت مثل أجيال لحقته من مبعوثين راحوا وعادوا مدلهين في عشق الأنوار الإمبريالية".(١٣)

فالنص واضح وصريح في تحديد المجال الفكري للذات محل الدراسة رضوى عاشور. إنها ذات مُدْرِكَة لما هي مقبلة عليه، واعية بالمسافة الفاصلة بين الأنا والآخر. وبذلك تكون ذاتاً "أبعد من (الأنا) ذاتاً تذهب بعيداً في الذاكرة وتحفر عميقاً في الواقع المعيش".(١٤)

الذات المنطلقة والجادة في تحقيق الهدف:

حيث توضح موقفها من الاغتراب: "قدمي التي كدت أرجع بها إلى الوراء أقدمت خطوة على استحياء ثم خطوتين وراحت المرأة الصغيرة تستجيب وتتعلم". (١٥)وتقول: "حين تركت غرفة سكرتيرة القسم وجدت نفسي أنزل الدرج وقد دبَّت في حيوية عشرة قرود والسبب: ألم أنته بتسليم هذه الدراسات من فصل دراسي

كامل؟ ألن أكون في القاهرة بعد أربعة أو خمسة أيام على الأكثر؟".(١٦)

الآخر:

كيف يمكن أن نفهم الذات؟ هل يلزم وجود طرف آخر كي تتم علاقة بين ذات وآخر ومن ثم تتضح الرؤية. تؤكد سيمون دي بوفوار على أنه "لا يمكننا أن نكتسب وعياً بالذات – الأنا – إلا في مقابل ما ليس بالأنا. ما هو آخر".(١٧) ويقول ميلان كونديرا: "أنت هو (أناي) الأخرى، إنك تعيش المصير الذي أفلتُّ منه بالصدفة".(١٨)

ولكن من هو الآخر؟

تتعدد وجهات النظر إلى الآخر حسب الفلسفة التي ينطلق منها التحديد. فالآخر قد يكون: (صورة الإنسان في المرآة) مثلاً. يقول ماهر شفيق فريد: "إن الصورة هنا هي أول وسيط بيننا وبين العالم الخارجي وهي (الآخر) الذي يظل (آخر) باستمرار ونحن مهما تقدمنا في السن لا نتغلب قط على هذا الحنين إلى التماهي مع انعكاسنا الخاص (صورتنا في المرآة) وسنظل نتطلع إلى تحقيقه في حياتنا الراشدة سواء في مرآة المجتمع أو في مرآة الأسرة أو أعين الآخرين. إن المرآة عين فارغة تحدق إليك".(١٩) وهي التي سماها (لاكان) عالم النفس (المرحلة المرآوية)، وهو ما نجده في نص (الرحلة) حيث تتحول ذات رضوى إلى: ذات وآخر منفصل عنها. آخر يسكن المرآة. تقول عن تصوير (مريد البرغوثي) زوجها لها في القصيدة: "كانت القصيدة مرآة مسحورة مدَّ لي مريد بها يده عبر المسافات وقال: هي لك. فهل هذه حقاً أنا؟ كانت (رضوى القصيدة) كزرقة النار صافية... وقفت أمامها موزَّعة بين الزهو والحياء".(٢٠)

إذن فهو الانقسام الحاصل بين ذات وما يقابلها. وهي أي رضوى تتحول في منتصف الرحلة إلى شخصية أخرى بفعل الرحلة وتكويناتها ومراحلها. حتى أنها تتحاشى النظر إلى وجهها في المرآة تقول: "أصفف شعري، أعدّل من هيئتي وعيناي مشبتتان على شعري أو ملبسي. أخشى التقاء العينين بالعينين".(٢١) والآخر يتمركز في نص (الرحلة) حيث هو الاحتكاك المباشر مع الغرب. وتحدد رضوى هدفها "جئت رغبة في دراسة الأدب الأمريكي الأسود".(٢٢)وبذلك التحديد المهم يتم تقسيم الآخر في هذا النص إلى آخر إيجابي مؤازر وآخر سلبي مضاد.

أولاً: الآخر الإيجابي المؤازر:

(شيرلي جراهام ديبوا) هي أول خيط يظهر في الصورة في حياة رضوى عاشور. إنها صديقتها العجوز وهي الكاتبة الأمريكية السوداء ذات الأصول الأفريقية وأرملة الزعيم الأفريقي (ديبوا) وهو: "أبو الوحدة الأفريقية الذي دعا إليها عام ١٩٠٤ وناضل من أجلها بالفعل والكتابة وتعرض للاضطهاد وظل بلا جواز سفر حتى نكروما من الولايات المتحدة رسمياً بعد استقلال غانا وكان الرجل آنذاك على مشارف التسعين.. وقد بقي يدعو لتحرر شعبه الأسود في أمريكا وتحرر أفريقيا من سطوة المستعمر وسطوة المستغلين من أبنائها حتى مات في غانا ودفن في أرضها".(٢٣)

يقول ديبوا: "أثق أن كتَّاب العالم السود سوف يفهمون هذا ويضطلعون بمهمة قيادة أفريقيا إلى طريق النور وليس إلى الوراء، إلى الاستعمار الجديد؛ حيث يضع رأسمال بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة يده في يد رأسمال أفريقيا لاستعباد الأيدي العاملة الأفريقية".(٢٤)

ومن المناضلين الأفريقيين أيضاً الذين عاصرتهم رضوى خلال رحلتها مناضل مهم على المستوى الثقافي الإبداعي وهو: (شينوا آشيبي) حيث درّس مادة الأدب الأفريقي. وهو روائي نيجيري ولد عام ١٩٣٠م كانت أولى رواياته: الأشياء تتداعى Things fall abart ١٩٥٨م في إنجلترا، وبعدها: لم يعد ثمة راحة No longer at Ease ثم: سهم الله: Arrow of God.. وغيرها وتتحدث معظم رواياته عن ماضي شعب (الإيبو) في (نيجيريا) حيث السيطرة الاستعمارية وتأثيرها على المجتمع.(٢٥)

وتلح رضوى في الارتباط بقضايا المجتمع (الآخر) تقول: "إنني أريد دراسة الأدب الأفرو أمريكي كجزء من انشغالي بعلاقة الأدب بواقع النضال الشعبي".(٢٦) حيث الدراسة تدخل في نطاق همومه الملّحة والقضايا الأكثر إلحاحاً لواقعنا الثقافي. والأمر يبدو موصولاً كالحلقة المكتملة. فهي مهتمة بقضايا المجتمع مشاركة في أحداثه سواء في بداياتها العمرية (الرحلة) أو في آخر عمرها (أثقل من رضوى) وهكذا يكون النص الأدبي جزء من الصورة الكبرى. يقول إدوارد سعيد: "الواقع المعاصر للعلاقات بين الولايات المتحدة وما يسمى بـ (العالم الثالث) وهو الذي يضم: الصين، والهند، والشرق الأدنى،

وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، يتكون بوضوح من مجموعة شائكة من المشاكل". (٢٧) وفي أثقل من رضوى توضح موقفها من الآخر: الأطباءويختلف موقفها من هؤلاء. فهي على اختلافها مع العديد من الأطباء الذين مَرَّت بهم، أبدت إعجابها وتأييدها لطبيب جراح اسكتلندي يُدّعى: (ستيفن دافيسون) أو كما أطلقت عليه: (الجنون الواثق). فقد أجاد وأفلح فيما لم يفلح فيه الجراح الصيني (ولترجين) والأفريقي(نيوكرك) تقول: "ستيفن يجمع بين حرفة الجراح وجرأة المخترع وإبداع النحات".(٢٨) وسر إبداعه هو أنه "قام بنقل عضلة من الظهر، وحوّل معها مجرى الشريان الذي يغذيها بعد أن أمَّد الرأس بعظم نشره من الضلع السابع جسر به الفراغ المتخلف عن العظم المستأصل في جراحة يوم الأربعاء. بعدها ترك للجراح الشاب الذي عاونه في الجراحة إغلاق الرأس برقعة مربعة من الجلد اقتطعها من أعلى الفخذ الأيمن".(٢٩)وتقول أيضاً: " لقد أتى بما يشبه المعجزة، نحن نتحدث عن معجزة من نوع ما تمزج الجراحة بالخيال". إن مجرد قراءة الفقرة السابقة ومحاولة تخيلها لصعب. ورضوى عاشور تتوقع ذلك وتعلمه ولذا فهي تخاطب الآخر – القارئ هذه المرة – بعد شرحها لعدة جراحات مريرة مرّت بها – فتقول: "أجهدت القارئ والقارئة وأثقلت عليهما، وهناك احتمال أن يتركا الكتاب وينصرفا عنه لأن الراشدين لا يدفعون من جيوبهم لشراء همّ مصفى يبكيهم ويوجع قلوبهم". (٣٠)

ولا أعتقد أن سيرتها مجرد (وجع للقلب) كما تصفها لقد عرضت رضوى هذا الجزء المهم والصعب من حياتها لهدف وهو ترك ما يدفع الآخرين للأمام. إنه Motivation الحافز المعروض بحروف تقطر دماً وألماً وذلك بدليل آخر صفحة من السيرة. تقول فيها: "أقول لنفسي: لا يصح أو يجوز [أن أضعف] لأنني من حزب النمل. من حزب قشة الغريق، أتشبث بها ولا أفلتها أبداً من يدي، كل أسرتنا من حزب العناد. نمقت الهزيمة. لا نقبل بها. فإن قضت علينا، نموت كالشجر واقفين، نُنجِز أمرين كلاهما جميل: شرف المحاولة وخبرات ثمينة، تركة نخلفها بحرص للقادمين... هناك احتمال آخر لتتويج مسعانا بغير الهزيمة ما دمنا قررنا أننا لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا".(٣١)

ثانياً: الذات، والآخر في الرواية والحكاية:

أولاً: الذات:

تبدو الذات في رواية (خديجة وسوسن) هي ذات (المرأة) متعددة الشخصيات. الذات الأنثوية في مقابل نفسها والآخرين. فالرواية تستبطن الذات بشكل نفسي تحليلي عميق. ويكثر فيها حديث النفس (المونولوج الداخلي) وهي معتمدة على التفكير الدقيق من جانب الشخصيات النسائية خاصة. وإلى جانب المضمون النفسي نجد الرواية تركز على المضمون الاجتماعي، حيث المجتمع المصري في تلك الآونة وما يسوده من أفكار وآراء والمضمون الاجتماعي للعمل الأدبي. يقول ميلان كونديرا: "الرواية التي تصوّر وضعاً تاريخياً، وصف لمجتمع في لحظة معينة تأريخ بشكل رواية تقدم معرفة لا روائية بلغة الرواية".(٣٢)

وتتركز (الذات) هنا في شخصيتين: خديجة وسوسن. الأم والابنة. وقد صوّرت المؤلفة (خديجة) شخصية قوية تكاد تكون مستبدة وأنانية. إن ذاتها حاضرة بشكل واضح ومؤكد. لقد تزوجت منذ صغرها بالدكتور (كمال) الجراح العائد من الخارج. والمفترض أن تكون شخصيته هي الأقوى نظراً لعلمه ومكانته وعمله. ولكن المؤلفة (رضوى) تنسج خيوط الشخصية الأنثوية (خديجة) بحيث تصبح هي المسيطرة وهي المحركة الأولى لدفة السفينة: (الأسرة) المكونة من ثلاثة أبناء: (زينب، سعيد، سوسن) على الترتيب. ورغم أن البيئة المحيطة بخديجة تدفعها إلى الانسحاب عن دور القائد في الأسرة إلا أنها تخترق الحجب المفروضة حولها.

إنها تسأل والدها: "لماذا عمتي غائبة عن صورة الأسرة، فيرد: لأن جدك لم يسمح للبنات بالذهاب إلى المصور ولا للمصّور بالدخول عليهم في البيت".(٣٣) وهي – أي خديجة – تضحك بصوت عال فتعنفها والدتها: "إن الضحك بصوت عال لا يناسب البنات".

وتتجه شخصيتها إلى الذكورية نوعاً ما: "عندما كنت صغيرة كنت أريد أن أكون مثل أبي في كل شيء، وأن أصبح صيدلية مثله، كنت أجمع العلب الفارغة وأصفها على المائدة وأبيع الدواء لأحمد ومجدي". (٣٤) ثم تغيَّر رأيها إلى الحد الذي يذهب بها إلى الرغبة في تعلُّم (النجارة) في الورشة المجاورة للبيت: "بعد أيام نزلتُ إلى المحل وعرضت أن أشاركهما في العمل! ضاقت عينا النجار الصغيرتان... وضحك وقال: يابنتي لا يمكن أن تكوني صبية في المحل لأنه – لا مؤاخذة –

النجارة ليست شغل نسوان". (٣٥)

أما في (سراج) فالأمر مختلف؛ إذ أن (الذات) و (الآخر) هنا متداخلان، يُسْلم أحدهما إلى الآخر فهو أحياناً ذات، وهو أحياناً آخر وهو ما يزيد في ثراء الحكاية. والصورة الأكثر بروزاً ووضوحاً للذات هنا هي مجموعة من النساء تختلف ثقافتهم وطبقاتهم الاجتماعية. أولهم (آمنة) المرأة المصرية البسيطة وللحكاية مُفْتَتَح بارع تسرده رضوى كالتالي:

"آمنة تخشى (البحر) ولكنها تكذب على قلبها تستيقظ قبل صياح الديك وتبدأ يومها بالذهاب إلى الشاطئ تشخص بعينها في الظلام، وتهمس بالدعاء بعدها تقصد الميناء وتسأل: هل من جديد لا جديد". (٣٦)

وهكذا تفتتح الحكاية بفقرة مركزة وكثيفة لدلالات عديدة: آمنة امرأة بسيطة، الآخر الأول في حياتها هو (البحر) إنها تخشاه، فهي تجلس كل يوم في مواجهته تنتظر الغائب الذي لا يعود. وهي تدعو الله أن يعيد إليها هذا الغائب الغامض الذي لم تفصح عنه الساردة. هل هو الزوج؟ أو الأب أو الابن أو غير ذلك.

والعمل اليومي: طاهية القصر أو ما يسمى (البيت العالي للسلطان). كل يوم مع الفجر "تسمي باسم الرحمن وتشرع في نقل الأجولة ثم تبدأ في نَخْل الطحين... وبعد أن يؤذن لصلاة العصر تَعْقِد آمنة منديلها على رغيفي الخبز أجرها اليومي". (٣٧)

ويذكّرنا المنديل هنا بما دأبت رضوى عاشور على ذكره منديلها المعقود ومنديل والدتها من قبلها وغيرها من النساء. أرادت دائماً أن تكون حصيلة منديلها مختلفة. (٣٨)

وتخبرنا الحكاية أن الغائب المنتظر: سعيد ابن آمنة الوحيد وبعد حكايات عدة تلتقي الأم بابنها الغائب. تقول: "كيف قطعت آمنة الطريق؟ مَنْ رأت في طريقها؟ هل حدثها أحدهم وسألها لماذا تركضي؟ هل أجابته وبماذا أجابت؟ من لمحها في الطريق لم يَرَ منها سوى ساقين تركضان وجديلتين تتطايران في الريح وصوتها ينادي على سعيد فيتردد الصدى في جنبات التلة". (٣٩)

إنها رضوى تكتب بقلب الأم، فالعاطفة صادقة ومعبرة، وكأن القارئ يستشعر إحساس امرأة ريفية بسيطة قد عاد وحيدها بعد غياب طويل. فكأن عمرها الذاهب قد عاد وكأن الفرح ملازم للمكان. وبذلك تبدو الحكاية بشخوصها قريبة من القارئ مشابهة لواقعه.

ثانياً: الآخر:

الآخر في (خديجة وسوسن) متنوع وموَّزع بين الآخر: الرجل، والآخر: المحتل.

أولاً: الآخر/الرجل:

أول من يظهر في الصورة (كمال) الزوج، الآخر الأهم في حياة الذات (خديجة) وهو رغم ذلك تصفه بالسلبية تقول: "كان كمال جالساً أمام التلفزيون المغلق يحدق فيه كأنه مفتوح، لم يحرك ساكناً، هكذا هو ترك ابنته تركض في الشوارع وهو جالس بلا حراك". (٤٠) ونلاحظ العبارات المؤكدة على السلبية: (لم يحرك ساكناً، هكذا هو، جالس بلا حراك) وذلك رغم صعوبة الموقف وقوة الحدث (النكسة) وهروب ابنته من البيت.

وفي مكان آخر تقول خديجة: "كالمعتاد كمال غائب كأن زينب ابنتي وحدي. يعمل طوال اليوم ويعود في الليل مرهقاً فلا يتبادل معي سوى كلمات معدودة". (٤١) وتقول: "كمال هكذا دائماً يخالفني فيما أقول ويخذلني في المواقف التي أحتاج فيها إلى مساعدته". وكلما طالت المدة الزمنية بينهما زادت الفجوة. تقول: "كمال لا يتفهمني. أنهى النقاش بشكل جارح وقال لي أن أترك الأولاد وشأنهم وألا أفسد حياتهم بتسلطي! لماذا يقول هذا الكلام؟ وهل رآني أفسد حياة أحد؟ أنا أربيّ له أولاده وهو غائب طوال اليوم يقول مشغول.. فمن الذي أَفْسد حياة مَنْ؟ (٤٢)

إن كلاً من الذات والآخر يرى غيره من زاوية مختلفة. إن خديجة ترى كمال سلبياً مهملاً لها لا يعطيها ما تحتاجه من الحب والحنان، وبالتالي فقد أفسد حياتها. وهو يراها شخصية متسلطة وأنانية مما يفسد حياة الجميع. لذا فإنه دائماً ما يقول لها: (أفعلي ما بدا لكِ). وحين تشاوره في أمر تقول: (لم يبد على كمال الحماس ولكنه لم يعترض).

والملاحظ بشكلٍ عام تنّوع تصنيفات الآخر في الرواية لدى رضوى عاشور خاصة وهي تحمل دائماً في ذهنها صورة الواقع الاجتماعي واضحة وحية. إن "المعرفة بتاريخية الواقع ومجتمعيته وسياساته ركيزة أساسية في رواية رضوى عاشور. ركيزة واعية أرادتها المؤلفة ولكنها سعت كي لا تكون على حساب فنية الرواية ومتعة قراءتها". (٤٣)

الخاتمة

ذات وآخر أم ذوات وآخرون. بداية

البحث في ذات رضوى عاشور انتهت إلى ذاتها المرئية وذواتها الغير مرئية. ذات (المرأة) بما تحمله من طاقات إيجابية وسلبية: الحب والطموح لما هو آت، والخوف من المجهول سواء الزمن أو الآخر الغريب عنها.

ذات (الإنسانة) التي تحمل الوعي الإنساني بقضايا مثل: الاضطهاد والعنف والعنصرية حيث الصراع الأمريكي الأفريقي في (إمهرست) نموذجاً حيث درست وشاهدت تفعيل ذلك الصراع الممتد منذ عصور تاريخية مضت. ولمست عن قرب أرواح مناضلين أفارقة أمثال: "آتشيبي وديبوا وغيرهما مما ذكرها بأرواح أخرى مثل: عرابي وغيره وآثار حرب فيتنام، وبورتريكا وشعوب أخرى، (الرحلة).

وهي الذات (العربية) الواعية بالمسافة بين الذات والآخر والتي تظهر في أوضح صورها متمثلة في الصراع العربي الإسرائيلي على سبيل المثال، حيث سجلت رضوى حرب الأيام الستة ١٩٦٧ وآثارها على المجتمع العربي والمصري (خديجة وسوسن). كما سجلت ملامح الثورات العربية ٢٠١٣/٢٠١١ في مصر وتونس خلال رحلة علاجها (أثقل من رضوى) وفي (سراج) التخيل الإبداعي لآثار الاحتلال الإنجليزي لأكثر من مكان وبلد حيث تتشابه الآلام.

والسؤال الذي تبادر إلى الذهن: هل يعد تصوير رضوى عاشور الأدبي للعلاقة بين الذات والآخر سجلاً تاريخياً قد أجاب عنه البحث من خلال التحليل لأسلوب السرد سواء في السيرة الذاتية (الرحلة) و (أثقل من رضوى) أو في الرواية (خديجة وسوسن) أو في الحكاية (سراج) حيث قصد التنوع الأدائي في الإبداع الأدبي.

إن تصوير العلاقة بين الذات والآخر في إبداع رضوى عاشور من الأهمية بمكان حيث يصل إلى أن يكون وثيقة لأحداث مرَّت بها صنوف بشرية متعددة مما يدل على اتساع تجربتها الذاتية في علاقتها مع الآخ

الهوامش:

(١) الأدب وفنونه: دراسة ونقد: عز الدين إسماعيل: ١٥١: دار الفكر العربي.

(٢) الرواية العربية ورهان التجديد: محمد برادة: ٧٢: الهيئة المصرية العامة للكتاب: ٢٠١٢.

(٣) انظر: بناء الرواية: سيزا قاسم: ١٨٩ وما بعدها: الهيئة المصرية العامة للكتاب: ٢٠٠٤م.

(٤) انظر: الأدب وفنونه: عز الدين إسماعيل: ١٥٦.

(٥) تكوين موقع إلكتروني: مقال: أكتب لأني أحب الكتابة: رضوى عاشور.

(٦) الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية: حسن حنفي: ٣٠: من أوراق المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب والفنون (العولمة والهوية).

(٧) موقع تكوين: أكتب لأني أحب الكتابة.

(٨) الأدب والنسوية: بام موريس: ترجمة: سهام عبد السلام: مراجعة: سحر عبد الكريم: ٤٧: المجلس الأعلى للثقافة: ٢٠٠٢م.

(٩) الرحلة: رضوى عاشور: ٣٥.

(١٠) الرحلة: رضوى عاشور: ٦١: ٦٢.

(١١) الأدب والنسوية: بام موريس: ١٨٥.

(١٢) تكوين: أكتب لأني أحب الكتابة: رضوى عاشور.

(١٣) الرحلة: رضوى عاشور: ٦.

(١٤) المنديل المعقود: دراسات في أعمال رضوى عاشور. تحرير: فاتن مرسي. أكثر من تحية: يمنى العيد: ١٨: دار الشروق: ط١: ٢٠١٦.

(١٥) الرحلة: ٢٥.

(١٦) الرحلة: ٥٠.

(١٧) الأدب النسوية: بام موريس: ترجمة: سهام عبد السلام: مراجعة: سحر عبد الكريم: المجلس الأعلى للثقافة. ٤٧: ٢٠٠٢م.

(١٨) الهوية: ميلان كونديرا: ترجمة: محمد تهامي: المركز الثقافي العربي: ط١: ٢٠١٠م.

(١٩) ما وراء النص: ماهر شفيق فريد: ٩٣. الدار المصرية اللبنانية: ط١: ٢٠١٦م.

(٢٠) الرحلة: ٤٣.

(٢١) الرحلة: ٩٣.

(٢٢) المرجع نفسه: ١٠.

(٢٣) الرحلة: ٤٥.

(٢٤) الرحلة: ٩٩.

(٢٥) انظر: الأدب الأفريقي: علي شلش: ١٨٢-١٨٣: عالم المعرفة: ١٩٩٠م.

(٢٦) الرحلة: ١١.

(٢٧) الاستشراق: إدوارد سعيد: ١٠٥: رؤية للنشر: ٢٠٠٨م.

(٢٨) أثقل من رضوى: ٩١.

(٢٩) أثقل من رضوى: ٩٠.

(٣٠) أثقل من رضوى: ٨٣.

(٣١) أثقل من رضوى: ٣٩٣.

(٣٢) فن الرواية: ميلان كونديرا: ٣٩.

(٣٣) خديجة وسوسن: رضوى عاشور: ١٤.

(٣٤) خديجة وسوسن: ١٥.

(٣٥) خديجة وسوسن: ١٨.

(٣٦) سراج: رضوى عاشور: ٥: دار الشروق: ٢٠٠٨م.

(٣٧) سراج: ٥.

(٣٨) في كتاب (المنديل المعقود) تمَّ تقديم بعض الدراسات العلمية عن إنتاج رضوى عاشور: دار الشروق: ط١: ٢٠١٦م.

(٣٩) سراج: ٦٤.

(٤٠) خديجة وسوسن: ٦٠.

(٤١) خديجة وسوسن: ٦٥.

(٤٢) خديجة وسوسن: ٦٧.

(٤٣) الرواية العربية: يمنى العيد: ٣١٢.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

أعمال رضوى عاشور الأدبية:

- الرحلة: سيرة ذاتية، دار الشروق، ١٩٨٣م.
- سراج: حكاية عربية، ٢٠٠٨.
- خديجة وسوسن ، ٢٠٠٩.
- أثقل من رضوى: دار الشروق، ٢٠١٣م.

ثانياً: المراجع العربية:

- إداوارد سعيد: الاستشراق، رؤية للنشر، ٢٠٠٨م.
- سيزا قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م.
- عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي، ٢٠٠٢م.
- مجموعة من الباحثين: المنديل المعقود، دراسات في أعمال رضوى عاشور، تحرير، فاتن مرسي، دار الشروق، ٢٠١٦م.
- محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م.
- يمنى العيد: الرواية العربية: المتخيل وبنيته الفنية، دار الفارابي، لبنان، ٢٠١١م.

ثالثاً: المراجع المترجمة:

كونديرا، ميلان:

١- فن الرواية، ترجمة: أحمد شاهين، دار الشرقيات، ١٩٩٩م.

٢- الهوية، ترجمة: محمد تهامي، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٠م.

٣- موريس، بام: الأدب والنسوية، ترجمة: سهام عبد السلام، مراجعة: سحر عبد الكريم، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢م.

مؤتمرات:

- المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب والفنون (العولمة والهوية) منشورات جامعة فلادلفيا، ١٩٩٩م.
- الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية: حسن حنفي

خامساً: الإنترنت:

- مجلة تكوين www.takween.com.

مقال: أكتب لأني أحب الكتابة، رضوى عاشور، تاريخ الرجوع للموقع: ٢٠١٧/٦/٢٨م.

- موقع good reads، تاريخ الرجوع للموقع، ٢٠١٧/٣/٢٨م.